موت سيدنا عيسى المسيح في إنجيل يوحنا

كباقي روايات الإنجيل الشريف الأخرى، يضفي الإنجيل كما رواه يوحنا أهمية خاصة على موت سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) وكذا الأحداث التي سبقته وأعقبته. وحين ننظر إلى موت سيدنا عيسى المسيح (سلامه علينا) بمنظار بشري، نرى أنه في لحظة ما أصبح في نظر السلطات شخصًا غير مرغوب فيه، فاختارت لذلك تصفيته جسديًّا. لكن هذا الطرح يترك عدة أسئلة معلقة: لماذا أصبح سيدنا عيسى المسيح شخصا غير مرغوب فيه عند السلطات؟ لماذا تم قتله بتعليقه على الصليب؟ ألم يكن ذلك موتًا مهينًا ورهيبًا في آن؟ كيف حدث ذلك؟ ألم يكن ذلك أمراً مُخزيًا جداً؟ إذا كان سيدنا عيسى المسيح من الله، أفلا يكون موته عنواناً على ضعف الله؟ أيكون الله ظالماً إذ سمح لمثل هذا الأمر بأن يحدث؟

لكي يجيب يوحنا عن كل هذه الأسئلة، وضع سيرة سيدنا عيسى المسيح في سياق أشمل. فمن أول فصل يستهل روايته بالحديث عن رفض اليهود لسيدنا عيسى المسيح ومغزى هذا الرفض.

لكن عوض أن يبدأ سرد السيرة ببساطة من معمودية سيدنا يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) (عليه السلام) كما بدأها مرقس، يرجع إلى ما قبلَ بدء الخليقة ليضع صورة سيدنا عيسى المسيح في إطار كونيٍّ شامل؛ حيث يبدأ روايته للإنجيل بالكلمتين الاستهلاليّتين اللتين بدأ بهما سفر التكوين، أوّلُ كتب التوراة الشريفة: "في البدء..." ثم يتحدث عن الكلمة كشخصٍ كان في البدء قبل الخليقة، ويمر بعد ذلك إلى تعريفنا أنّ سيدنا عيسى المسيح هو الكلمة. لقد كان الكتاب اليهود يفهمون كلمة الله عز وجل على أنها قوة كامنة فيه، وكانوا أحياناً يصفون الكلمة، أو الحكمة، باعتبارها موجودةً في الأزل بمثل الطريقة التي يصف بها المسلمون وجود القرآن قبل نزوله.

ولم يحدث أبداً أن فكّر علماء اليهود في كلمة الله كإله آخر معه عز وجل، لأنهم كانوا توحيديين يؤمنون بوجود الإله الواحد. لكنهم كانوا يتحدثون عن حكمة الله وشريعته كشيء متميز في وجوده. والذين كانوا منهم يرون أن حكمة الله متضمنة في شريعته كانوا يقولون إن الله أعطانا شريعته، أي كلمته. لكنهم غالبًا ما كانوا يتحدثون عن كلمة الله وحكمته كما لو كانوا يتحدثون عن شخص ما، أو ملاك أعلى. وتلك كانت نسبيًّا صورة جسورة.

ففي بعض الكتابات القديمة يصور الكتّاب اليهود حكمة الله نازلة إلى الأرض تبحث عن مكان لها تقيم فيه، بحيث لا تعثر على هذا المكان إلا بين بني إسرائيل. لكنَّ من هؤلاء الكتاب مَن كانوا أكثر تشاؤماً، حيث تكلموا عن تعذر عثور الحكمة على مكان تقيم فيه، إذ كانت في كل مرة عرضة للرفض. كما أن المجتمعات التي عاش يوحنا فيها كانت قد بدأت تفهم هذه الكتابات على أنها إشارات لسيدنا عيسى المسيح. فصار هؤلاء يرون في سيدنا عيسى المسيح كائناً بشريًّا حلّت كلمة الله فيه. ومن هنا تلك الصورة الأكثر شيوعاً في رواية يوحنا لسيدنا عيسى المسيح رسولاً من عند الله يمثله على الأرض. لكن بما أنه كلمة الله فهو لم يأت فقط ليعمل مشيئة الله كاملة على الأرض، بل أيضاً ليرشد الناس إلى معرفة الله. فمثلما الكلمة الظاهرة تكشف الفكرة الباطنة الخفية، هكذا سيدنا عيسى المسيح يكشف طبيعة الله الخفيَّة. وكان المسيحيون الأوائل يؤكدون فكرة كون كلمة الله وحكمته المتجلّية في سيدنا عيسى المسيح عرضة للرفض باستمرار. وكانوا يرون أن سيدنا عيسى المسيح والكلمة ليسا

سوى شيء واحد. وبهذا المعنى كان رفض الناس لسيدنا عيسى المسيح رفضا لحكمة الله. لذلك يقول يوحنا: "وقد جاء إلى بيته، فما قبله أهل بيته. أما الذين قبلوه، وهم الذين يؤمنون باسمه، فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء الله" (يوحنا 1:11-12)

إنَّ يوحنّا، في مستهل افتتاحية روايته للإنجيل الشريف، لم يشر مباشرة إلى سيدنا عيسى المسيح، بل أشار فقط إلى كلمة الله، لكن المعنى يصبح واضحاً حين يتكلم عن سيدنا يحيى بن زكريا(يوحنا المعمدان) (عليه السلام) في شهادته عن سيدنا عيسى المسيح بأنه هو "الكلمة" الذي "صار بشراً" (1:15). وهذه الفكرة سوف تضع الإطار لكل الأحداث اللاحقة. فالذين استوعبوا الكلمات الافتتاحية للإنجيل حسب يوحنا فهموا أن سيدنا عيسى المسيح لم يكن فقط رجلاً صالحاً يعمل الخير، ولا نبيًّا يعلّم الناس، بل الشخص الذي تجلت فيه كلمة الله بالذات. ورفض هذا الشخص إنما هو رفض لكلمة الله تماماً.

كان السبب الرئيسي لرفض بعض اليهود لسيّدنا عيسى المسيح هو القول إن كلمة الله تجسدت فيه تماماً، حيث كان يبدو لهم الأمر كما لو أن سيدنا عيسى المسيح يعلن نفسه إلهاً ثانياً، وهو بلا شك فهم خاطئ. فالفصل الأول من الإنجيل الشريف حسب يوحنا يشير إلى سيدنا عيسى المسيح على أنه "الابن الوحيد" عند الآب (1:14، 18) وقد أتى من عند الله وكان مع الله منذ الأزل.

لقد كانت صورة الابن عرضة لسوء الفهم باستمرار. فالْبُوَّة الله من جهة وبُنوَّة سيدنا عيسى المسيح من جهة أخرى لم تكونا تعنيان الأبوَّة والبُنوَّة بالشكل المادي المحسوس الذي يفترض وجود أم في مكان ما، إذ إن الله من هذا المنطلق واحد أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. صورة الأب والابن هنا تتأسس على علاقة المحبة التي هي أساساً علاقة محبة من الله تجاه سيدنا عيسى المسيح، وهي تشابه محبة الأب تجاه ابنه ووريثه الوحيد. لذلك يمكن القول في هذا السياق إن هنالك شيئين يجتمعان في شخص سيدنا عيسى المسيح. أولهما أن الناس إنما التقوا الله عندما التقَوا وجهاً لوجه سيّدنا عيسى المسيح. وثانيهما أنهم لم يروا شيئا آخر سوى الله حين رأوا سيدنا عيسى المسيح، فالكلمة ليس إلهاً آخر، بل إلهٌ واحد تجلّى في سيدنا عيسى المسيح ومن خلاله.

وقد أشرنا إلى ذلك في مقالة "المعجزات والعلامات"، حيث بيَّنَّا كيف أن المسائل المرتبطة بالله تعالى أصبحت ترتبط في ذهن الناس بسيدنا عيسى المسيح. فإذا كان الله هو الحياة والنور والحق، فإن الناس أصبحوا يرون أيضاً أن سيدنا عيسى المسيح هو الحياة والنور والحق. وإذا كان الله هو الذي يمنحنا الغذاء الحقيقي، وخبز الروح، والماء الذي يطفئ عطشنا الداخلي، فإن الناس آمنوا أيضاً بإعلان سيدنا عيسى المسيح أنه خبز الحياة وواهب الماء الحي. لكن سيدنا عيسى المسيح لم يكن كل تلك الأشياء باستقلالٍ عن الله. إنَّما كان كلَّ ذلك لأنه كان يعمل مشيئة الله بطاعة وأمانة تامتين، ولأنه كان واحدا مع الله في كل ما كان يقوم به.

هذا التصور يؤطِّر كل الإعلانات التي يدونها يوحنا في الفصل الأول من روايته للإنجيل الشريف. حيث نقرأ "فيه كانت الحياة. والحياة نور الناس" (4:1)، "والنور يشرق في الظلمات ولم تدركه الظلمات" (5:1). وفي نهاية المقدِّمة يخبرنا يوحنا أن "الكلمة صار بشراً، وسكن بيننا، فرأينا مجده، مجداً من لدن الآب لابن وحيد، ملؤه النعمة والحق" (14:1). كان ذلك المجد يشبه نور الله، وكان مشرقاً متلألئاً في شخص سيدنا عيسى المسيح. حقاً، لم يسبق أن رأى أحد الله، لكن سيدنا عيسى المسيح الذي هو كلمة الله قد أخبر عنه.

تطور الصراع

تساعد افتتاحية الإنجيل الشريف كما رواه يوحنّا (1:1-18) القارئَ على فهم الصراعات التي سوف يواجهها سيدنا عيسى المسيح لاحقاً، بما في ذلك محاكمته وموته. فالذين لا يرون في سيدنا عيسى المسيح سوى كائن بشري سوف تبدو لهم فكرة عمله أعمال الله تجديفاً محضاً. أما الذين يرون أنه فعلاً كلمة الله، فسوف ينظرون إلى تعليمه بشكل مختلف. بعبارة أخرى، هناك الذين يستطيعون النفاذ إلى حقيقة سيدنا عيسى المسيح العميقة، وهناك الذين يفشلون في ذلك. وهذا هو سبب الصراع الذي طبع مسار الأحداث: صراع بين النور والظلمة؛ الشر والخير؛ الذين يؤمنون بسيدنا عيسى المسيح ويتبعونه، والذين يرفضونه ويقتلونه.

بعض الإلماعات الأولى إلى هذا الصراع الآتي تظهر مبكراً في افتتاحية الفصل الأول من الإنجيل الشريف حسب يوحنا، وذلك حين يصف سيدنا يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) سيدنا عيسى المسيح قائلا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم" (29:1). وهو القول الذي يُقدِّم سيدنا عيسى المسيح في صورة الحمل-الذبيحة (الأُضحيّة) كما تظهر في الديانة اليهودية. كما أن سيدنا عيسى المسيح يصف في آخر آية من هذا الفصل رؤيا نزول الملائكة على ابن الإنسان، إشارةً إلى ما سيقع بعد موته (51:1).

ثمة إشارة واضحة إلى مصير سيدنا عيسى المسيح. وهي تظهر في قصة عرس قانا (1:2-11). فعندما أخبرته أُمُّه أن خمر صاحب العرس نفدت، كان رد فعله الأول أن ساعته لم تأت بعد (4:2). إذ غالباً ما كان سيدنا عيسى المسيح يتكلم عن "ساعته". وكان يعني بها موته وما يليه من أحداث (30:7؛ 20:8؛ 23:12؛ 1:13). فهو كان يعرف أن طاعته لله سوف تؤدي به إلى موته المبكر، وكان يعيش حياته في ظل تلك المعرفة. والإشارة إلى مصيره تأتي هنا في سياق العرس لكي تنبه القارئ إلى المعنى العميق للقصة، حيث إن تحويل الماء إلى خمر يعني الخمر الروحية الجديدة التي سوف يمنحها بعد موته. والقصة تذكّر قُرّاء يوحنا أيضاً بالوجبة المقدسة المكونة من الخبز وعصير العنب، وهي الوجبة التي صارت مركزية في العبادة المسيحيَّة.

علاوةً على أن سبب الصراع كان أساساً إعلانَ سيدنا عيسى المسيح أنه كلمة الله، نجد أن العدوانية تطورت تجاهه بسبب تعليمه في مسألة هامة هي مسألة الجديد الذي يحل محل القديم. وهذا التعليم واضح في العمل الرمزي الذي قام به في عرس قانا حيث وضع الخمر الجديدة في أجران حجرية يستعمل اليهود ماءها لغرض الطهارة (1:2-12) وأيضا عندما أخلى الساحة الخارجية للهيكل، وأعلن أنه بعد موته وقيامته سينتهي دور الهيكل القديم، ويصير هو نفسه هيكلاً جديداً (13:2-22). في هذه القصة الأخيرة يؤكد سيدنا عيسى المسيح موته بآية من المزامير تقول "الغيرة على بيتك ستأكلني" (يوحنا 17:2؛ مزامير 9:69). لقد صدم عمله السلطات، وكان كتاب المزامير (الزَّبور) نفسه قد أنبأ مسبّقاً بقرار اليهود تصفية سيدنا عيسى المسيح (انظر مرقس 15:11-18؛ 58:14). بعد ذلك يخبر سيدنا عيسى المسيح المرأة السامرية عند البئر أن شكلاً جديداً للعبادة سوف يحل محل كل من هيكل السامريين وهيكل اليهود. وهذا الشكل الجديد سوف يكون عبادة بالروح والحق (24:4). لذلك فالحديث عن حلول الجديد محل القديم كان مدعاة للصراع خصوصاً من جانب أولئك الذين يرون القديم ثابتاً مستمراً.

ثم إنَّ حادثة شفاء مشلول "بيت ذاتا" بالقدس فجَّرت الصراع بين سيدنا عيسى المسيح والقوى اليهودية (يوحنا 5)، ذلك الصراع الذي ظل إلى ذلك الوقت خفيًّا. لكن لم تكن مسألة الشفاء هي المشكل، بل قيام سيدنا عيسى المسيح بذلك في يوم سبت، وقوله أيضاً للمشلول أن يحمل فراشه ويمشي في يوم سبت. فقد رأى بعض اليهود في ذلك استخفافاً صارخاً بسُنَّة السبت (16:5). ولم تزد نار العدوانية إلا تأجُّجاً عندما أخبرهم سيدنا عيسى المسيح أنه إنما يعمل عمل أبيه (17:5)، حيث رأوا في إعلانه ذلك مساواةً لشخصه بالله. لكن سيدنا عيسى المسيح أوضح لهم أنَّه لا يتكلم ويعمل من تلقاء ذاته، بل يفعل ذلك طاعةً للآب (18:5-21). وجاوز سيدنا عيسى المسيح ذلك حين أخبرهم أنه لا يعمل ذلك فقط، بل أُعطِيَ سلطة القضاء أيضاً (22:5-29).

وتستمر الصراعات حول إعلانات سيدنا عيسى المسيح في الفصول اللاحقة. فخصومه إما يسيئون فهم أقواله، وإمّا يفهمونها ويواجهونها بالرفض، حيث إنهم لم يستطيعوا استيعاب فكرة مجيئه من عند الآب وعودته إليه. في الفصول (6-10) يستخدم سيدنا عيسى المسيح صوراً ذات علاقة بالاحتفالات اليهودية لتأكيد فكرة كونه قد جاء ليحل محل القديم. ففي الفصل 6 من إنجيل يوحنا ترتسم صورة وجبة الفصح في الخلفية عندما يعلن سيدنا عيسى المسيح نفسه الخبز الحقيقي (4:6، 26-50)، وأيضاً عندما يصف جسده ودمه بالطعام الحقيقي المانح التوبة والنجاة (51:6-58). وفي يوحنا (7-8) يشير إلى الطقوس الاحتفالية المرتبطة بعيد المظالّ (الأكواخ) كسكب الماء، وإشعال المشاعل. فتارة هو الماء الحي (37:7-39) وتارة أخرى هو نور العالم (12:8).

إن وصف يوحنا لردة فعل الناس تجاه إعلانات سيدنا عيسى المسيح تذكر بالطريقة التي استجاب بها بنو إسرائيل لسيدنا موسى، وهي طريقة تتلخص بموقف التذمُّر (41:6، خروج 24:15). فمنهم مَن أدار ظهره لسيدنا عيسى المسيح بسبب هذه الإعلانات (60:6-71؛ الفصل 8). وأمّا الذين أبدوا دعمهم الظاهري تجاه سيدنا عيسى المسيح مثل نيقوديموس، فدخلوا في صراع معه. كما أن سيدنا عيسى المسيح لم يكن يبدو مسروراً بالجموع التي كانت تتبعه منبهرة فقط بمعجزاته (23:2-25). لذلك أخبر نيقوديمُس بضرورة تحوُّله إلى إنسان جديد، من طريق الولادة الجديدة التي وصفها أيضاً بالولادة "من عَلُ" (1:3-5).

بلغ الصراع بين سيدنا عيسى المسيح وجمهور اليهود ذروته حين اتهموه بأن فيه شيطاناً (48:8، 52). كما وصفهم هو أيضاً بأنهم أولاد أبيهم إبليس (37:8-47). وهذا الصراع يذكّر بالصراعات المرة التي انفجرت في ما بعد بين اليهود والمسيحيين، لأن الناس قد يسيئون استخدام الأفكار الواردة عند يوحنا بطرق عنصرية إذا تناسوا أن الصراع المذكور في يوحنا هو أساساً صراع ما بين تصورات يهودية.

يتكرّر الصراع نفسه في ما بعد حين يستشيط الفريسيون غضباً بسبب شفاء سيدنا عيسى المسيح لرجل أعمى في يوم سبت (14:9)، وأيضاً حين نلاحظ خوف عائلة الرجل من الطرد خارج المجمع لإيمانهم بسيدنا عيسى المسيح (22:9). لكن الإنجيل الشريف يعكس الآية بشكل ذكي خالعاً على الفريسين مظهر العميان الحقيقيين (39:9-41). قد نستشف أيضاً من هذا الحدث أن أعضاء الجماعة المسيحية كانوا في عهد يوحنا يتعرضون للطرد من المجمع (انظر أيضاً 2:16).

ويستمر الصراع حين ينتقد سيدنا عيسى المسيح الرعاة المزيفين، مستهدفاً بذلك رجال الدين اليهود (10:1-10)، فخلافاً لهؤلاء يعلن سيدنا عيسى المسيح أنه يعتني بخرافه عناية الله بها (10:11-16؛ وأيضاً على الخصوص 10:28-29) وهي اللحظة التي يقول فيها قوله الفصل " أنا والآب واحد" (10:30). هذا القول كان عرضة لسوء الفهم في الفصل 5 كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. فقد ظن خصومه أنه يعلن نفسه إلهاً، لكن قصده كان مختلفاً كما شرح لهم (10:32-39). لقد كان واحدا مع الله لكونه يعمل مشيئته، ولكونه وحيده المرسل من لدنه. لكن ذلك لم يزد الصراع إلا تأجيجاً حيث أصبح الخصوم يعترضون سيدنا عيسى المسيح حتى عندما يعمل أعمالاً صالحة أو يقوم بمعجزات خارقة كما حدث عندما أقام لعازر حيًّا من الموت (11:47).

العوامل السياسية

عندما اجتمع قادة اليهود ليتداولوا في أمر سيدنا عيسى المسيح، عنّت لهم مسألة جديدة أصبح عليهم النظر إليها بعين الاعتبار. ففي اعتراضهم على إعلانات سيدنا عيسى المسيح الدينية، استحضروا المضاعفات السياسية للدعم الجماهيري الذي أصبح سيدنا عيسى المسيح يحظى به (11:47-48). لقد خافوا أن يلاحظ الرومان مدى اتساع شعبيته وتزايد عدد أتباعه، فيفسروا ذلك على أنَّه تمرُّدٌ يهودي، ويلجأوا إلى حظر العبادة اليهودية. لذلك فضلوا أن يقتلوا سيدنا عيسى المسيح وينقذوا باقي الشعب على أن يتركوه مصدر خطر للجميع (11:49-53)، فبدأوا التخطيط لقتله.

لكن هذا الأمر يبدو حافلاً بسخرية القدر، ذلك أن التمرد الذي خشيه اليهود سوف يحدث بعد أربعين سنة، وسيفعل الرومان عين ما خشيه اليهود: تدمير الهيكل ونهب المدينة. فسيدنا عيسى المسيح مات فعلاً لأجل الشعب كما يرى المؤمنون، لكن بطريقة مختلفة تماماً عمّا كان يدور في ذهن اليهود. بل يمكن أن نزيد فنقول إنَّ القادة اليهود والرومان لم يفعلوا سوى تنفيذ خطة الله التي وضعها تعالى لموت سيدنا عيسى المسيح، دون أن يدركوا ذلك. فمشيئة الله لا رادَّ لها.

ثمَّ يصل الصراع أقصى ذروته حين يتم القبض على سيدنا عيسى المسيح بأيدي مجموعة من الجنود وحَرَس الهيكل (18:3-28) أخذوه ليلاً إلى رئيس الكهنة بقصد التحقيق معه - دونما محاكمة. وبعد ذلك أخذوه ليمثُل أمام بلاطس في محاكمة أظهرت بوضوح تآمُر اليهود عليه في مؤامرة وصلت حد إنكارهم لإيمانهم (18:28؛ 19:16)، وإعلانهم القيصر الرومانيَّ ملكهم الذي قالوا إن لا ملك لهم سواه (19:15).

إن محاكمة سيدنا عيسى المسيح وقتله صَلباً كما كان يفعل الرومان، لهو أمر شديد الوقع والقسوة. فيوحنّا يصف كثيراً حزن سيدنا عيسى المسيح، كما يصف استعداده لمعاناة العذاب والموت بسبب عزمه على طاعة مشيئة الله حتى النهاية (12:27-30). وقد عانى المسيحيون في ما بعد مختلف أنواع العذاب التي تحملوها بسعة صدر لكونهم يعرفون ما عاناه قبلهم السيد المسيح نفسه (12:26).

ولقد بدا بعض مؤمني الكنيسة أوَّلَ عهدها غير مستريحين لفكرة كون سيدنا عيسى المسيح كلمة الله بشراً حقيقياً عانى ما عاناه بالفعل ومات. لذلك بذل يوحنا جهداً خاصّاً لكي يبدد كل شك داخلنا، حيث يشهد أن سيدنا عيسى المسيح لمّا طعنه أحد الجنود بحربة في

جنبه، خرج منه في الحال دم وماء (34:19). ثم يضيف مؤكّداً شهادته: "والذي رأى شهد، وشهادته صحيحة. وذاك يعلم أنه يقول الحق، لِتُؤمنوا أنتم أيضا" (35:19). ويؤكّد يوحنا بذلك أيضاً أن سيدنا عيسى المسيح مات موتاً بشرياً فعليّاً، وكان ذا جسدٍ بشريٍّ حقيقي. ولم يكن أعداؤه وحدهم هم الذين شهدوا موته وأكّدوه ، بل أيضاً شهد موته وأكّده المُقرَّبون منه على مدى سني حياته على الأرض، وكذا أصدقاؤه الأقربون، وأُمُّه. فجميعهم شهدوا أن الشخص الذي كان على الصليب لم يكن سوى سيدنا عيسى المسيح الذي عرفوه، وشهدوا موته عِياناً.

لكن المؤمنين يرون في صَلب سيدنا عيسى المسيح أكثر من موتٍ بشريّ، والمسيحيون يستخدمون العديد من الصور لوصف هذا الحدث بسبب الأثر العميق الذي تركه في حياة الناس. إن موته كان إنجازاً لمهمَّة ربانية عظيمة، حيث نراه يعلن في صلاته الختامية: "إنّي قد مجَّدتك في الأرض، فأتممتُ العمل الذي وكلت إليَّ أن أعمله" (4:17؛ 38:6). كما أعلن على الصليب، مباشرة قبل موته: "تَمّ كلُّ شيءٍ" (30:19). وبذلك يبين الصليب أن سيدنا عيسى المسيح بقي مضطلعاً بمهمّته حتى النهاية.

يعلن سيدنا عيسى المسيح في مكان آخر أنه الراعي الذي يعطي الخرافَ حياتَه: (11:10، 15). فيكون الصليب بذلك أيضاً عنواناً للمحبة، وبيانا للمدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه المحبة. لأن الله أحب الناس حتى جاد لأجلهم بابنه الوحيد (3:16-17) وقد عبَّر سيدنا عيسى المسيح عن هذه المحبة حتى آخر رمق (13:1-3). هكذا يصبح الصليب قمة الإعلان عن المحبة التي تتحدى الموت مصداقاً لقول سيدنا عيسى المسيح: "ليس لأحد حبٌّ أعظم من: أن يبذل نفسه في سبيل فدى أحبائه" (13:15). كما لا ينبغي أن ننسى أن سيدنا عيسى المسيح كان عادة يخاطب الله مستخدماً اللفظ الدلال: "آبا" أي "أبي". لذلك نرى في الصليب تجسيداً لمحبّة الله تجاه الناس، لأنه على الصليب منح ابنه حبيبه أُضحيَّةً لكي يؤدي ثمن ستر خطايانا وغفرانها، حتى نستطيع العودة من جديد إلى حضن الله.

والصليب هو أيضاً كشف لطبيعة الخطيئة والشر لأنه يبين بوضوح المدى الذي يمكن أن يصلا إليه. ففي إنجيل يوحنا يمثّل الصليب إدانة صارخة للشر لأنه ليس سوى تعبير عن الكراهية تجاه محبة الله. وإذا كان الصليب عند البشر أداة تنفيذ للحكم على سيدنا عيسى المسيح، فهو في نظر المؤمنين إدانة الله للعالم الذي انكشفت أعماق الشر بداخله، حيث يذهب يوحنا إلى القول إن الصليب هو المكان الذي تم فيه الانتصار على الشر والشرير (12:31؛ 16:8-11).

والصليب يجسِّد أيضاً المعنى الذي رمى إليه سيدنا يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) حين أشار إلى سيدنا عيسى المسيح قائلاً إنَّه حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم (1:29). وكان هذا هو جوابه عندما سُئل هل هو المسيح المنتظر (1:19، 26). فحمل الله في نظر سيدنا يحيى بن زكريا هو المسيح الذي سوف يرفع خطيئة العالم. والكثير من المسيحيين آمنوا أن سيدنا عيسى المسيح هو الأُضحيَّة التي رفعت الخطيئة والشر. فبحسب إنجيل يوحنا يتزامن حدث موت سيدنا عيسى المسيح مع عيد الفصح السنوي تماماً في الوقت

الذي يتم فيه ذبح خرفان الفصح التي كانت تؤكل في مساء اليوم عينه، تذكيراً لبني إسرائيل بالعتق من عبوديتهم في مصر (28:18). وبذلك يرمز موت سيدنا عيسى المسيح للعتق من عبودية الخطيئة.

الموت بداية جديدة

تبدو أهمية موت سيدنا عيسى المسيح عند يوحنّا في كونها البداية لشيء أعظم من كل ما كان سيدنا عيسى المسيح يقوم به على الأرض. وقد ذكر السيد المسيح ذلك لنثنائيل الذي تعجّب من معرفته كل شيء عنه، فكان أن قال له: "سترى أعظم من هذا" (50:1-51)، وفي الاتجاه عينه سأل السيد المسيح نيقوديموس قائلاً: "فإذا كنتم لا تؤمنون عندما أكلّمكم في أمور الأرض ولم تفهموا، فكيف تؤمنون إذا كلّمتكم في أمور السماء" (12:3). ثم تكلم بعد ذلك عن صعوده إلى السماء (13:3) ورفعه (14:3). ويمكن القول إننا نرى في هذه المواضع كلّها توريات كلاميَّة سوف نلحظها أيضاً في (28:8) و(32:12؛ 34).

أعلن سيدنا عيسى المسيح بعد دخوله الأخير إلى مدينة القدس: "وأنا إذا رفعتُ من الأرض جذبتُ إليَّ الناس أجمعين" (32:12). قال ذلك لأنه عرف أن موته وعودته إلى الله سيفتحان الطريق أمام العديد من الناس ليصبحوا أتباعاً له، لأن موته كان بمثابة حبَّة الحنطة التي وقعت في الأرض وأعطت حصاداً كثيراً (24:12). لذلك يمكن القول إنَّ أعظم لحظات حياة سيدنا عيسى المسيح هي لحظة عودته إلى مجده السماوي مع الآب (31:13؛ 1:17-5).

هذه اللحظة هي علامة مرحلة جديدة بالنسبة لحواريِّيه الذين سيُتمِّمون عمله ويعلنون رسالته للعالم، والذين لن يكونوا وحدَهم (18:14)، لأنه في لحظات وداعه لهم، قبل القبض عليه، وعدهم بأنَّه سيُرسل لهم الروح القدس الذي سيبقى معهم إلى الأبد (16:14-17؛ 7:16). وحين ظهر لهم بعد قيامته قال لهم: "كما أرسلني الآب، أرسلكم أنا أيضًا" (10:21). ثم نفخ فيهم قائلا :"خُذوا الروح القدس". وهو الفعل الذي يذكر ببداية الخليقة حين نفخ الله روحه في الطين فصار بَشَراً حيّاً.

وقد جاء الروح القدس لكي يعين ويشجِّع أتباع سيدنا عيسى المسيح (16:14). جاء ليساعدهم على النفاذ أكثر إلى هوية سيدنا عيسى المسيح، وتبليغ رسالته بفعالية زائدة (26:14؛ 26:15؛ 8:16-15). وكانت النتيجة أن تزايد عدد المؤمنين به بشكل أعظم بكثير

مما حدث خلال حياة السيد المسيح على الأرض مصداقاً لقوله: "مَن آمن بي، يعمل هو أيضاً الأعمال التي أعملها أنا، بل يعمل أعظم منها، لأني ذاهب إلى الآب" (12:14).

كان موت سيدنا عيسى المسيح، كما عُرض في الإنجيل الشريف حسب يوحنا، نتيجةً حتمية لصراعه مع اليهود بسبب خوفهم من جماهير الشعب ومن الرومان. ومثل أنبياء الله قبله، واجه سيدنا عيسى المسيح رفض الناس لرسالته ولم يتراجع، رغم أن أتباعه هربوا وتركوه في أشد لحظاته الأخيرة حلكة. وهو واجه كلَّ شيء حتى يكمل العمل المنوط به، ثم جاد بحياته لكي يرشد الناس إلى الحياة الحقيقية، والنور، والحق، والمحبة، وأيضاً لكي يكشف الوجه الحقيقي للشر بكل ما يحمل من كراهة للنور والمحبة. ولئن كان موته قاسياً جداً، فإنَّه لم يشكّل مأساة في حدِّ ذاته، لأنه جعل محبة الله في متناول الجميع.